البنية العامة لرواية "نهاية الأمس" لعبد الحميد بن هدوقة

بن يوسفي بن علي
جامعة تلمسان - الجزائر

نسعى في هذه الدراسة إلى الاقتراب من رواية "نهاية الأمس" للكاتب عبد الحميد بن هدوقة، بالوقوف عند التنظيم العاملي للنص وأهم العلاقات التي تقوم بين مختلف العوامل والرغبات التي تحركها في التحري عن موضوع القيمة من خلال البرامج السردية للرواية

• التنظيم العام للرّواية

من الناحية الشكلية، يظهر النص وللوهلة الأولى كأنه عبارة عن نسج متماسك الحياكة ومترابط العضوية، يمثل قصة بسيطة، يجمعها خيط سردي واحد، والأحداث فيها متتالية على أساس منطقي. غير أنه كلما تقدمنا في القراءة بشيء من الإمعان، نلاحظ أن هذا النسيج المتجانس ليس بذات الحال طوال القصة عندما تتأزم الأحداث ويظهر ما يعرف "بالعقدة"(L'intrigue)، أو كما يسميها "غريماص" بـ "تقلب الحال" (Renversement de situation)[1] ، تتمزق هذه العضوية وتنقسم بالتالي إلى

حالتين، نرمز إليهما بالوضعية (أ) والوضعية (ب). وطبقا لهذا الانفصام من الوحدة الترابطية، نفصل الرواية إذا إلى قسمين حتى يسهل علينا تحليلها.

يمتد القسم الأول، من بداية الرواية إلى غاية الصفحة 128 حيث ينقلب الوضع من حالة هادئة طوال هذه الفترة، إلى حالة مغايرة، نصفها بالمتأزمة، حيث تتعقد الأمور ثم تنفرج مع نهاية الفترة الثانية المتبقية من الخطاب.

الفترة الأولى (أو الحالة أ) تصف طبيعة الفعل الذي لا يزال في مرحلة المشروع حيث تعرفنا بماهية الهدف أو الغاية التي يريد أن يصل إليها البطل؛ بينما الفترة الثانية (أو الحالة ب). فإنها تتعرض إلى مرحلة تحرك هذا البطل على أرض الواقع من أجل تحقيق مبتغاه، وتبين كذلك العقبات والصعاب التي يضعها أمامه بعض أشخاص الرواية المعارضة لمسعاه.

- **القسم الأول : (الحالة أ)**

يبدأ بوصف انتقال معلم نحو قرية صغيرة قصد التعليم فيها أثناء هذا التحرك، ينقل إلينا الراوي الحالة الجغرافية و تضاريس هذه القرية :

«العرى هو الكساء الوحيد الذي تلبسه الأرض.... كانت الطريق ملتوية محدبة ... وكانت القرية تبدو حينا و تختفي أحيانا، وفي بدوها لا يمسك النظر منها إلا أكواخا و دورا هنا وهناك...»[2]

إن هذه الجمل غنية بالدلالات الاجتماعية والاقتصادية، توحي إلى وضعية معينة : بؤس الأمكنة. الأراضي المحيطة بالقرية قاحلة، خالية من الزرع والنبات؛ الطريق المؤدية للقرية غير معبدة، ملتوية ومحدبة؛ السكن بدائي، مكون من أكواخ مبعثرة وغير منظمة. نحن إذا في عالم ريفي حيث

الحياة منحطة والمستوى المعيشي متدنيا. وسائل العيش محدودة ومرتبطة بالأساس على بعض القطعان من المواشي وقليل من الحوالات البريدية التي يرسلها بعض العمال المغتربين بفرنسا:

إنهم لولا بعض المواشي التي يقتاتون منها لهلكوا جوعا.[3]

إن السكان هنا يعيشون من البريد.... من الحوالات....[4]

إن الزراعة، التي من المفروض أن تلعب دورا هاما في الحياة الريفية، مهمشة في هذه المنطقة، حيث أن الأراضي التي يمتلكها سكان القرية محدودة وغير مستغلة في معظمها؛ وإن كان القليل منها، خلاف ذلك، فإن منتجوها لا يكاد يسد رمق الحياة اليومية لأصحابها.

إن هذه الحقيقة البائسة، تخفي من ورائها جانبا آخرا من الحياة الصعبة التي يتحملها السكان، وهي مشكلة البطالة، المرتبطة أساسا بالفقر وقلة الإمكانيات المادية والتي تدفع ببعضهم إلى الخيار بين أمرين كلاهما مرّ، وهما إما الهجرة من القرية نحو فضاءات أخرى، بحثا عن العمل، وإما البقاء فيها والاكتفاء بالقليل من الفرص الظرفية التي يمنحها لهم من وقت لآخر بعض كبار ملاك الأراضي في المنطقة.

يتعرض النص أيضا إلى أوجه أخرى من الحياة الاجتماعية للسكان والتي تؤكد كلها حالة البؤس التي يعيشونها. من هذه الأوجه، يتحدث الخطاب عن مشكل الفوارق في الرزق، بين طبقتين مختلفتين، إحداهما تضم قلة من كبار المزارعين، يمثلها شخصية ابن الصخري، والتي تستمد قوتها من وفرة الأراضي الخصبة، والإمكانات المادية وقطعان المواشي، ومن استغلالها المفرط لليد العاملة الزهيدة، التي تنتمي إلى الطبقة الثانية والمتكونة جلها من البطالين والفلاحين المفتقدين لملكية الأرض.

يتحدث النص أيضا عن مناحي أخرى من هذه الحياة البائسة، كالعزلة والأمية والجهل. يبدو أن السكان هنا منغلقين عن أنفسهم داخل المكان والزمان. تنقلاتهم اليومية تحدث داخل مدار مقفل، لا يتعدى حدود القرية؛ تبدأ من مكان الإقامة وتعود إليها بعد أن تمر بحقول العمل أو المقهى أو المسجد. إن حياتهم تكاد تكون روتينية، لا يغيرها في الأصل، إلا بعض المناسبات الدينية مثل شهر الصيام والأعياد، وبعض الاحتفالات الاجتماعية والعرفية مثل الزواج والخطبة أو زيارة المقابر وإقامة "الوعدات" للتبرك بالأولية الصالحين وتخليدهم.

إن الجهل والأمية يعمان غالبية السكان، إلى درجة أن الكثير منهم لا يستطيع حتى فهم أسباب الهوة التي تفصل بينهم وبين ملاك الأرض الكبار مثل ابن الصخري، ضنًا منهم أن ذلك ظاهرة طبيعية، لا يجوز لهم إلا التسليم بها وقبول حتميتها.

إن غالبية السكان يعيشون إذا حياة صعبة وفقرا مدقعا، ينبغي إزالتهما عن طريق إقامة إصلاح اجتماعي واقتصادي عام. وفي هذا المعنى يمكن تحديد مسؤولية شخصية البشير في القرية. إن مهمته تتعدى مجال التعليم، لتطال حقلا أوسعا من ذلك، وهو إرساء دعائم إصلاح شامل، يهدف إلى محو العوامل المؤدية إلى تدهور الحال في هذه القرية.

دور البشير يتمثل خصوصا في رفع مستوى الإدراك الصحيح للأمور والوعي السياسي لدى السكان حتى يتمكنوا من فهم ورفض الفرق الشاسع الذي يفصلهم عن كبار الملاك. وذلك بمحاربة الأمية والجهل والاتكال والتهاون والكسل عبر محاولة إحياء النفوس وبث فيها روح العمل والمسؤولية كعاملان أساسيان لبعث الحياة من جديد في هذه القرية.

هذه هي إذا الخطوط الكبرى التي تهدف إليها وترتكز عليها مهمة البشير في هذه القرية النائية.

عندما نتتبع خطوات البطل "البشير" داخل الرواية، نجد أنها تسير وفق طريقة مدروسة وممنهجة، يحاول من خلالها الاندماج بين سكان القرية بصفة لينة وتدريجية، دون الاحتكاك المباشر والخشن مثلا مع الإقطاعي ابن الصخري ومساعديه.

أول شيء يقوم به البشير هو الانخراط المهذب واللطيف داخل الحياة الريفية، من خلال محاولة التعرف على السكان وإقامة علاقات طيبة معهم لكي يتسنى له فهم عقلياتهم وطبائعهم ومشاكلهم اليومية :

عينات المجتمع كالأمراض، يجب دراستها داخل إطارها الحقيقي[5]

ولكي يباشر تحركه على أرض الواقع، فإنه يقرر زيارة مختلف الفضاءات العامة في القرية التي يتجمع فيها السكان. وأفضل مكان يتجه إليه في صبيحة يومه الأول، هو المقهى، حيث يتطلع، بالإضافة إلى مصافحة والتعرف على بعض القرويين، إلى مجالستهم و الخوض معهم في مختلف المواضيع التي تهمهم، حتى يتمكن من أخذ صورة عامة عن انشغالاتهم وتطلعاتهم المستقبلية وعن قدراتهم للتخلص من ضيق حالهم.

غير أن الرؤية العامة التي قدمها المقهى، هي في مجملها شائبة وقائمة، تفرض على البشير الكثير من العمل والجهد المتواصل. إن هذا الموقع يمثل، بامتياز، الماضي السحيق والتخلف الحقيقي، بكل معانيه، يصعب تغييره. إن الزبائن، منغلقون على أنفسهم، يعيشون في هامشية قصوى، في الخمول والكسل. همهم الوحيد، هو القضاء على الوقت بلعبة "الدومينو"؛ هذا الوقت الذي يبدو أنه يغر منهم، بما أنه لا يساوي شيئا بالنسبة إليهم. إن البطالة والكسل يمثلان عند البشير انتحارا جماعيا وجريمة في حق

المجتمع. إنه من الضروري، حسب البشير، إقامة مصنع صغير أو استصلاح بعض الأراضي وزراعتها، حتى لا يعود بالإمكان رؤية هؤلاء الناس يشغلون تلك الطاولات منذ شروق النهار إلى غروبه.

وإذا كانت صورة المقهى، في عمومها سيئة، فإن تلك التي قدمها المسجد ليست بأحسن حال من الأولى. إنه أصيب بخيبة أمل عميقة، عندما لا حظ أن مهمته، هنا، ضيقة لا تتعدى مجال إقامة الصلاة وتقديم بعض الدروس بطريقة تقليدية ولا تخوض في هموم وانشغالات السكان. حتى إمام المسجد بدى له رجلا محافظا ومعارضا لكل تقدم وحداثة :

بقدر ما كان هذا النمط من الناس أثناء الاحتلال عاملا من عوامل الحفاظ على الشخصية، بقدر ما سيكونون في المستقبل عرقلة في وجه كل إصلاح وحاجزا أمام كل تقدم[6].

بالفعل، إن الدين كان يمثل، بالنسبة للشعب الجزائري عاملا من عوامل الحفاظ على الشخصية والصخرة المتبنة التي تحطمت عليها كل محاولات الاحتلال لتركيع هذا الشعب ومحو هويته العربية الإسلامية.

ولكن بعد الاستقلال، استغل هذا الدين نفسه، حسب البشير، لمآرب أخرى، فأصبح عائقا أمام كل انفتاح وتقدم، لا يساعد على تفهم الرؤية المستقبلية التي أصبحت تستدعيها الظروف الجديدة للبلاد وهي ضرورة القضاء التدريجي على كل مظاهر الاستعمار وأشكاله مثل الإقطاع والاستغلال الفاحش للإنسان، عبر إرساء دعائم نظام اشتراكي يُغَلِّبُ المصلحة العامة، ويوفر العيش الكريم والمتساوي لجميع الناس.

مع ظهور شخصية "بوغرارة" في النص، هذا المجاهد القديم والمحترم من جميع أبناء القرية، الخطاب يعرف تحولا ملموسا في تطور الأحداث حيث أن هذا الرجل يتخذ موقفا مساندا لكل ما يقوم به البطل داخل الرواية، ويصبح بذلك الصديق الحميم للبشير والمكسب القوي الذي يمده

بالعون والمساعدة.

إن "بوغرارة"، من أبناء القرية المخلصين، ولد ونشأ فيها، عاش ماضيها وحاضرها وبالتالي فإنه يعرف كل شيء عن القرية، يعرف رجالها وطرائق تفكيرهم، ومشاغلهم، وكل خفية عندهم.

إن الزيارة التي قام بها "البشير" بمعية "بوغرارة" إلى منزل أم الحركي، مكّنته من القيام بأول عمل حقيقي على أرض الواقع : إنه استطاع أن يجد في شخص أم الحركي الخادمة التي بإمكانها أن تتولى شؤون النظافة وبعض الأشغال العامة داخل المدرسة التي يعتزم فتحها داخل القرية.

بالنسبة للرواية عموما، فإن زيارة دار أم الحركي، مكنت أيضا من ظهور حدث هام، له علاقة خاصة بحياة البشير، ويتمثل في طرح إمكانية وجود زوجته السابقة رقيه على قيد الحياة، والتي كان يظن أنها توفيت أثناء الحرب التحريرية. أمام التشابه الكبير في ملامح الطفلة الصغيرة فريدة التي استقبلت البشير في دار أم الحركي مع ملامح زوجته الأولى، أصبح هذا الأخير في حيرة من أمره، لا يستطيع فهم سر هذا التطابق الغريب في الملامح !؟

من الناحية السردية، فإن إقحام هذه الحلقة المتعلقة بالحياة الخاصة للبطل، من قبل المؤلف، داخل النسق العام للرواية، لا يمثل حشوا ولا يؤثر على السير العام للسرد الخطابي، بل هو امتداد طبيعي لتطور الأحداث داخل الخطاب.

وإذا كانت الزيارة الأولى التي قام بها البشير إلى منزل أم الحركي قد طرحت "مشكلة" الزوجة السابقة، فإن الزيارة الثانية إلى نفس المكان، كما سنرى، ستمكن من حل هذه المسألة.

يتابع الراوي في رصد تحركات البشير من مكان لأخر في القرية مفصحا من وقت لآخر عن وجهات نظر بطله وانتقاداته وملاحظاته التي

يبديها معلقا عن الحالة المريرة التي يعيشها سكان القرية. وتعليقا على بساتين القرية التي زارها البشير، فإن الراوي يثير مشكلة ملكية الأراضي الزراعية والتباين الشاسع في حيازتها بين سكان القرية. إن ابن الصخري، هذا الإقطاعي الكبير، يملك جل الأراضي الخصبة، بينما القليل والشيء منها يتقاسمه بقية السكان.

ومن خلال الحوار الذي يجريه الراوي بين البشير وبوغرارة، فإنه يكشف عن الغنى الفاحش الذي يعيش فيه ابن الصخرى وعن مكره وحيَّله التي يستعملها للاستحواذ على أراضي القرية.

في أوقات الجفاف، يعمل ابن الصخري على إقراض بعض من المال إلى ذوي الحاجة من الفلاحين مقابل أن يرهنوا له قسما من أراضيهم وإذا حظر اجل تسديد الذين وكان المُقْترضُ غير قادر على ذلك فقد أرضه لصالح المُقْترض. وبهذه الطريقة، استطاع ابن الصخري، شيئا فشيئا أن يستولي على أغلب الأراضي.

يتابع الراوي على هذا المنوال إلى آخر القسم الأول من الرواية، فضح شخصية ابن الصخري، والطرق الماكرة التي يستعملها لقضاء مآربه، كأن يظهر تارة كرجل متدين يحظر مرارا صلاة الجماعة، وتارة أخرى كرجل مناضل في الحزب، مخلص لوطنه ومدافع عنه.

- **القسم الثاني : (الحالة ب)**

الحدث الأول الذي يفتح هذا القسم يتمثل في ثورة القرويين ضد توظيف أم الحركي كخادمة في المدرسة.

أهمية هذا الحدث تكمن في أنه يمثل أول فترة يتأزم فيها الوضع داخل الخطاب السردي. بالفعل، فإن مهمة البشير داخل القرية، تأخذ

منعرجا خطيرا حيث أن افتتاح المدرسة، أصبح مهددًا، والعلاقة بين المعلم والسكان أمست متوترة.

وهكذا، فإن ظهور هذا الحدث أعطى للنص بعضا من الدفع و"المأساوية" (Dramatisation) أو كما يسميها "غريماص" بـ " تقلب الحال" (Renversement de situation) حيث يتبدل الوضع من الناحية الدلالية، من مضمون هادئ إلى مضمون متوترٍ والذي يمكن رسمه، حسب وجهة نظر غريماص، على الشكل التالي :

ما قبل	~	مضمون هـادئ
ما بعد		مضمون منقلب (متوتر)

إن الربط بين هذا الرسم البياني وبين ما يطرحه النص، يوضح مدى التطابق مع التقسيم العام الذي وضعناه للرواية.

إن القسم الأول يتناول بالفعل مضمونا هادئا، حيث أن علاقة البشير مع سكان القرية مستقرة وجيدة، بينما القسم الثاني من الخطاب يتعرض لمضمون منقلب (متوتر)، يسجل تحول هذه العلاقة الطيبة إلى علاقة متدهورة ومتأزمة. وبناءً على هذا، فإنه يمكن صياغة شكل بياني آخر، يوضح هذا الترابط الحاصل بين ما يورده غريماص وبين الكيفية التي يظهر بها النص :

القسم الأول	=	ما قبل	=	مضمون هادئ	=	علاقة طيبة
القسم الثاني		ما بعد		مضمون منقلب		علاقة متدهورة

إن ظهور ابن الصخري وإمام مسجد القرية، كمعارضين أساسيين للبشير، يعطى لثورة القرويين ضد توظيف أم الحركي، دفعًا قويا لحركتهم الإحتجاجية ويزيد من توسيع الهوة بينهم وبين معلم المدرسة. فإذا أحجم

الناس عن إرسال أبنائهم إلى المدرسة المزمع افتتاحها بعد أيام قليلة، فهذا يعني أن مهمة البشير قد تفشل، وبالتالي فإن الوضع السائد وما يحمله من ضرر على حياة السكان قد ينتصر على الرغبة في التغيير والتقدم.

من الناحية العقائدية، فإن توظيف هذا الفصل الخاص بحركة القرويين المُعارضة والمساندة القوية لها من قبل ابن الصخري وإمام المسجد وما يملكانه من تأثير بفضل المال والدين، يُمَكنُ الكاتب من طرح بعض المسائل السياسية التي لها علاقة بالوضع الذي عاشته الجزائر بُعَيدَ الاستقلال. فإذا كان ابن الصخري يريد المحافظة على ثروته وعلى الوضع السائد الذي يخدم مصالحه الإقطاعية، فإن البشير يريد بالعكس القضاء على هذا الوضع السائد الذي يساعد على المزيد من الكسب والثراء بالنسبة لطبقة قليلة من المجتمع، في حين أنه يثبت الأغلبية الساحقة منه في مستوى معيشي متدني جدًا.

إن النص يرسم بوضوح تنافسا بين تيارين يمكن لنا أن نسميهما :

ثورة V S رجعية

حيث أن كل قطب من هذه الثنائية المتضادة، يحمل مجموعة من العوامل والتي بفضل دلالاتها المختلفة والمتعاكسة تحدد محيط وطبيعة هذا التنافس :

ثورة	V S	رجعية
يقظة		جهل
تحرير		استغلال
إصلاح		ضد الإصلاح
مدرسة		مسجد

القطب الأول من هذه الثنائية المتعاكسة والذي يمثل الثورة، يقوده البشير وبوغرارة، بينما القطب الثاني منها يتزعمه كل من ابن الصخري وإمام المسجد. كل فريق يسعى إلى الدفاع عن مصالحه أو لتحقيق بعض من أهدافه. مجموعة الثوار تعمل مثلا على قلب الوضع السائد، على محو الفوارق الاجتماعية بين السكان والقضاء على الفقر والجهل بينهم؛ وهذا ما يُهدّدُ بطبيعة الحال مكاسب الفريق الثاني ويدفعه إلى الرد بقوة للدفاع عن مكانته المتميزة ولإفشال مخططات الفريق الأول.

إن الطبقة البورجوازية لا تتردد في استعمال كل الوسائل والطرق الخبيثة لمحاربة البشير؛ فهيَ تارة تحاول ارتشاءه عندما اقترح عليه ابن الصخري مثلا أن ينصبه مديرا عاما لمزرعته وأملاكه، وتارة أخرى تقوم بتشويه سمعته ومصداقيته أمام السكان كأن تفشي بينهم أن الرجل ملحدوشيوعيّ في خدمة بلد أجنبي. ولعل أقصى ما أبدته هذه الطبقة من خبث هو عندما قام مجهولون بحرق مسجد القرية ليلا، طمعا في إلحاق التهمة بالبشير بعد أن روجت لشخص هذا الأخير بشتى الإشاعات والأكاذيب.

إن أغلبية القسم الثاني من الرواية يخصصه المؤلف لتجسيد هذا الصراع الدائر بين قطبي النزاع. ثم إلى النتيجة التي يفضي إليها في نهاية القصة. إن المؤلف، يُغَلبُ في خاتمة المطاف فريق الثورة على منافسه حينما يسجل نجاح البشير في تخطي كل العقبات والصعاب التي وضعها أمامه خصمه ابن الصخري، وفي افتتاح المدرسة في الموعد المحدد لها، ثم في استرجاع العلاقة الطيبة بينه و بين سكان القرية.

بالإضافة إلى الفوز البين الذي حققه البشير على صعيد المصلحة العامة، فإن المؤلف يضيف إلى ذلك نجاحا آخرا يمس هذه المرة الحياة

الشخصية لبطله. يتمثل هذا النجاح في استطاعة البشير حل لغز زوجته السابقة عندما قام بزيارة منزل أم الحركي للمّرة الثانية، قصد تعزية الأسرة بفقدان طفلتها الصغيرة فريدة؛ هذه الطفلة التي استقبلته في زيارته الأولى للمنزل نفسه، والتي كانت تحمل ملامح أمّها رقية. لقد توصل البشير إلى معرفة أن زوجته السابقة رقية لا زالت على قيد الحياة وأنها هي أم الفقيدة وتعيش بهذا المنزل منذ أن تزوجت بابن أم الحركي. إن ازدواجية هذا الانفراج الذي حققه البطل، يمكن الكاتب وبصفة لائقة وذكية من طرح نهاية مفتوحة للرواية، تقوم على احتمالين، قد يقصد من ورائهما إرضاء شريحة واسعة من القراء، كل حسب تصوره واستنتاجاته الخاصة به.

الاحتمال الأول يطرح مغادرة البشير للقرية ورفضه بالتالي المزاواة بين ماضيه وحاضره.

هو لا يبحث عن ماض، ولا جاء... من أجل ترميمه. بينما الاحتمال الثاني فإنه يقترح زواج البشير من جديد مع رقية ويفصح عن رغبة البطل في معايشة ماضيه مع مستقبله وفي إتمام مهمته داخل القرية.

الإحالات

1- أ ج غريماص، المعنى، باريس/ سوي 1970 ص 187.

2- الرواية، ص 7.

3- الرواية ص 9.

4- المصدر نفسه ص 9 / 10.

5- الرواية ص 65.

6- الرواية ص 71.